

2003

## المقدس والأدب : أية علاقة؟

عبد العلي الدكالي

doukaliss@hotmail.fr, كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر، أكادير، المغرب

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Arabic Language and Literature Commons](#)

---

### Recommended Citation

"المقدس والأدب : أية علاقة؟" (2003) عبد العلي الدكالي, *Dirassat*. Vol. 11 , Article 12.

Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol11/iss11/12>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

---

## المقدس والأدب : أية علاقة؟

Cover Page Footnote

فريال غزول، المنهج الأسطوري فصول المجلد 1 السنة 83 ص 108-1

## المقدس والأدب : أية علاقة؟

عبد العلي الدكالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير

إشكالية الأدب والمقدس، أي إشكالية العلاقة بينهما، تفرض نفسها بالحاح : هل هناك علاقة بين المقدس والأدب؟ إلى أي حد يمكن القول ببلوغ المقدس إلى حيث الأدب بل إلى الأدب ذاته، وبالتالي هل للأدب القدرة كل القدرة على استيعاب المقدس وتمثله، وإذا حصل، فما هو مدى ذلك؟ فهي إذن، إشكالية ذات طابع إشكالي؛ لما يعقبها من أسئلة: علاقة المقدس بصانع الأدب ومبدعه، أي الإنسان أو، على الأصح، المجتمع، وعلاقة هذا الأخير بالأدب. ونريد أن ننهي ذلك فنجد أنفسنا وجها لوجه مع متواليات من الإشكاليات العلائقية التي لاحد لها.

وسنحاول أولى تلك الإشكاليات، وذلك بتتبع العلاقة الممكنة بين الإنسان والمقدس. وهي علاقة ضاربة في البداهة، ولكنها، على بدايتها تلك، تستحق المساءلة. دون استدراج للمسلمات، وبغض النظر عن أي جواب قبلي، أي دون ربط المسألة بأي سياق إيديولوجي محدد، عدا السياق الإبستمولوجي، ودون التذكير بإمكانية الاكتفاء بالإحالة على الارتباط الحميمي للمقدس والاجتماعي، هذا الأخير الذي يعد فضاء الإنسان ونطاقه بكل المقاييس؛ نشير إلى حقيقة جلية، وهي أن وجود المقدس في حد ذاته، مرتبط بوجود الإنسان، وعلاقتها علاقة سببية؛ إذ لا يمكن وجود الواحد منهما دون الآخر: فإذا كان يستحيل الحديث عن الدين أي عن تحققه في غياب الإنسان، فإن الإنسان دون غيره من الكائنات الحية ذو نزوع نحو المقدس، فهو منذ وجد، وجد معه خوفه على حاجياته وخوفه على مصيره. وهذا الخوف، الذي يرى فيه G.VICO<sup>(1)</sup>

(1) فريال غزول، "المنهج الأسطوري" فصول المجلد 1 السنة 83 ص 108.

العامل الرئيسي لبداية الأديان، شكل رغبة الإنسان في إسناد مصير حياته/تجربته، دوماً، إلى قوى خفية غيبية. وذلك لمحاولة تجاوز عجزه أمام ذلك الخوف. فلا غرو أن نجد بأن معرفة الإنسان بالمقدس قديمة جداً، ترجع لأول خطوة خطاها نحو العالم الذي من حوله : "فالإنسان عرف العبادة منذ فجر تاريخه القديم، وكما قال H.BERGSON، قد نجد في الماضي أو الحاضر، مجتمعات بشرية لا تعرف العلم أو الفن أو الفلسفة، ولكن ليس ثمة مجتمع بلا دين<sup>(2)</sup>. وإذا كان كثير من الباحثين يلحون على فجر الإنسانية باعتباره الفضاء المناسب لإبراز تلك العلاقة، لما للدين من أهمية لدى إنسان أعزل أمام محيط لم يؤنس بعد؛ فإن من الباحثين مثل P.Depray RITZEN من يرى بأن علاقة الإنسان بالمقدس هي أكثر من ذلك : فهي علاقة تستجيب لغريزة باطنية لدى الإنسان، وبالتالي فالدين غريزة إنسانية لها أساس إحيائي مشاكل لما للغرائز الأخرى؛ وبالطبع فليس هناك أعضاء أو أنساق أعضاء لدى الإنسان يمكن ربط الدين بها، ولكن من المحقق جداً أن توقفاً وانجذاباً كبيرين يغمران الطبيعة الإنسانية، إلى درجة أننا لا نعرف أبداً شعباً لادينيًا (areligieux ...) فالنزوع إلى التدين طبيعي في الإنسان تماماً كالصهيل بالنسبة للخيل<sup>(3)</sup>. ويفسر E.CASSIRER هذه العلاقة من منظور آخر، باعتباره الدين من اختصاص الإنسان، الإنسان وحده، لأنه الوحيد الذي يملك طاقة لصنع الحضارات؛ وما الدين إلا إحدى الصور الحضارية التي تمنح الإنسان جوهر إنسانيته. ومن ثم فمن الممكن تفسير حياة الإنسان في جميع ظواهرها من خلال تلك الصورة<sup>(4)</sup>.

عبر هذه الإشارات المؤكدة على قطعية العلاقة بين المقدس والإنسان/المجتمع، ومدى حميميتها وأصالتها، نصل إلى السؤال المحوري الذي طالما أرق كلماتنا السابقة: الأدب والمقدس، أي علاقة يمكن أن تنهض بينهما : هل يتواشجان ويتساوقان؟ هل يتعارضان، فيمتنع كل واحد منهما عن الآخر...؟ هل تأكيدنا على علاقة الإنسان بالمقدس، هو بطريقة التعدية، إقرار بعلاقة الأدب، وهو نتاج إنساني، والمقدس؟

للإجابة لابد من إثارة مسألتين : الأولى، هي أن الأديب إنسان قبل كل شيء،

(2) سيريب بيرت، علم النفس الديني سمير عبده ط 1، 1985 ص 18.

(3) La Pierre DEPRAY-RITZEN, psychologie de la littérature et de la création littéraire. ed.Ritz pais (3)

1977 p.89

(4) انظر : ريتا عوض، اسطورة الموت، ص 26.

إنسان بما تحفل به صفة إنسان من مشاعر وقيم... بل هو، بما لديه من إحساس مرهف، وقدرة هائلة على نحت المختزل، بعد اختزاله، مما هو إنساني بالطبع؛ أكثر تمثلاً وامتثالاً لما هو إنساني". والفنان من حيث هو فرد يعيش في بيئة اجتماعية (...) فمن شأن هذه البيئة أن تؤثر فيه (...) وتطبعه بطابعها وتسبغ عليه مميزاتا وخصائصها<sup>(5)</sup>. ولا يشك DURKHEIM أبداً في أن هناك تشابكاً بين الذات المنتجة والتموجات الاجتماعية<sup>(6)</sup> أما المسألة الثانية، وهي وطيدة الصلة بالأولى، وهي أن الأدب الذي هو نتاج أديب، أي عضو في مجتمع؛ هو في حد ذاته نشاط يوازي، بطريقة أو بأخرى، النشاط الإنساني، أي الاجتماعي: "فالفن، كما يرى كويان، هو الحياة بل الحياة نفسها"<sup>(7)</sup>. وهو عند DE BONALD تعبير عن المجتمع<sup>(8)</sup>. لذلك فهو اجتماعي في نشأته وغايته<sup>(9)</sup>. ويتوهج وضوح هذا القول في سياق مماثل عند مؤلفي نظرية الأدب: "الأدب مؤسسة اجتماعية أدواته اللغة، وهي من خلق المجتمع، والوسائل الأدبية التقليدية، كالرمز والعروض، اجتماعية في صميم طبيعتها؛ إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلا في مجتمع. أضف إلى ذلك، أن الأدب يمثل الحياة، والحياة في أوسع مقاييسها حقيقة اجتماعية (...) فالشاعر نفسه عضو في مجتمع، منغمس في وضع اجتماعي معين، ويتلقى نوعاً من الاعتراف الاجتماعي (...) كما أنه يخاطب جمهوراً مهماً كان افتراضياً"<sup>(10)</sup>. إذن فمشروع الفصل بينهما يبقى ضرباً من المستحيل، أو وهماً، كما يرى J.L. JOUBERT<sup>(11)</sup> ودون أن نتجاذب تبعات هذا الطرح بين : كيف ذلك؟ وهل هو بكل هذا الإطلاق...؟ فإننا نشير إلى أن هذه الحميمية، وهذا الارتباط، إنما يكون أشد ما يكون وضوحاً عند البدايات الإبداعية لدى الإنسان: "وكان الفن، يقول إرنست فيشر، بكل أشكاله (...) يشكل النشاط الاجتماعي في أحلى صوره وأبدعها"<sup>(12)</sup>. بل ونكاد لا نستطيع في المجتمع البدائي أن نميز الشعر من العمل أو اللهو أو السحر أو

(5) علي أدهم على هامش الأدب والنقد ط 1 دار المعارف ص 159 .

(6) رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ص 79 القاهرة 1975 .

(7) م ن ص 73 .

(8) روني ويليك، نظرية الأدب تر صبحي ط 3. البيضاء 1985 ص 98 .

(9) رجاء عيد، م س ص 79 .

(10) روني ويليك، نظرية الأدب ص 97 .

(11) Jean-Louis JOUBERT, la poésie, Gallimard 1977.p12 انظر

(12) إرنست فيشر ضرورة الفن، تر ميشال سليمان، بيروت، ص 45 .



## الشعائر (13).

لقد قيل الكثير حول هذه العلاقة، علاقة الأدب بالمجتمع، وتشكلت على إثر ذلك اتجاهات عدة ومراسد شتى. وأصبحت هذه العلاقة ظاهرة بعض الفترات التاريخية بامتياز: ق 18-19<sup>(14)</sup> على الخصوص، وأصبح الامتثال لذلك نوعا من النضال الإيديولوجي؛ إلا أن ما نهدف إليه ليس هو جرد هذه القضية وسبر تفاعلاتها، ولكن تحققها فحسب، لنؤم وجهة علاقة أخرى، نعني محاولة تبيان مسألة علاقة الأدب والمقدس، والتي لم يكن كلامنا السابق إلا توطئة لها.

إن مقارنة مسألة علاقة الأدب والمقدس بغية توضيحها وإبرازها، قد تبدو إطنابا مجانيا؛ ما دما قد وقفنا عند علاقة الأدب بالمجتمع، وعلاقة هذا الأخير بالدين، سواء عند حديثنا عن علاقة الإنسان والمقدس مباشرة، أو عند حديثنا عن الاجتماعي والمقدس، وبطريقة التعدية، عن علاقة الأدب بالمقدس. غير أن ذلك، عند حقيقة الدرس والتحصيص، لن يغني من الحقيقة شيئا: حقيقة تقصي تلك العلاقة، علاقة المقدس بالأدب، والاقتراب منها دون وسائط.!

فالعلاقة بين المقدس والأدب، وثيقة الصلة منذ القديم؛ ذلك لأن العاطفة الدينية فطرية في الإنسان منذ نشأته، وهو دائما بحاجة إلى التعبير عنها، وتصوير ما يجيش بين حناياه من تفاعلاتها. ومن هنا تكاد الظواهر الأدبية عند سائر الأمم أن تكون ذات صبغة دينية<sup>(15)</sup>. فالصلة بين الدين والأدب، قديمة موهلة في غياهب الأزمنة وليست بالأمر المستحدث: " قديما كان الفنان الأول يمد يده ليتكلم ويرسم، وربما كان كلامه صلاة<sup>(16)</sup>. لذلك فمنذ ظهر أدب الإنسان على الأرض، ظهر ممزوجا بالدين<sup>(17)</sup> وبالتالي أضحت الإبداعات الأدبية، في نظر M.ELIADE، انعكاسا للحياة الروحية. وقديما، كما ترى THIOLLIER، كانت كل تظاهرة فنية، تظاهرة دينية<sup>(18)</sup> وإذا كان M.ELIADE، الذي ألح كثيرا على شدة ارتباط تلك الإبداعات بالعمق الديني، يعلل ذلك

(13) روني ويلك، م س 97.

(14) انظر R.BARTHES...; littérature et réalité ed Seuil, 1982

(15) الجيزاوي دراسات في الأدب العربي ص 5.

(16) أحمد كمال زكي، الأساطير، دراسة حضارية مقارنة بيروت ط 2 1979 ص 5.

(17) زكي محاسن، الأدب الديني، مصره 197 ص 10.

(18) انظر M.M.THIOILLIER, Dic des religions p. 263

برغبة الإنسان في خلق، أو محاكاة الخلق الإلهي<sup>(19)</sup>. وعمله آخر بالرغبة في فهم الكون، خاصة وأن الأدب تفسير فني للكون<sup>(20)</sup>؛ فهناك من رأى في تلك العلاقة ضمان حيوية الأدب واستمراريته ودوام نضارته: "لا يعيش الأدب منضوح البيان (... ) إلا في حمى الدين"<sup>(21)</sup> والأدب، حسب رأي P.DERRAY، منفعل دوما بحافز المطلق<sup>(22)</sup> مهووس، في نظر إليوت، بمطاردته أبدا<sup>(23)</sup>

فالأدب لصيق بالمقدس، أمين فضاءاته ومثوى أسرارهم. فهو لغته، ولربما لهذا السبب، نظر الإنسان للغة نظرة مقدسة منذ البداية<sup>(24)</sup>. ولولا الأدب، لبقى المقدس تجربة جوانية تتلاشى بين جدران الذات. والمقدس بطبعه يأبى ذلك؛ إذ سرعان ما ينفلت من كوابح الحميمية ليعيش: "فتجربة المقدس لا تبقى أبدا خاصة وحميمية (... ) فهو يصبح تأسيسا ينتظم في الزمان والمكان باستدعائه للبنىات الرمزية للخيال الإنساني"<sup>(25)</sup>. وعند هذا المستوى، لا تغدو إشكالية علاقة المقدس بالأدب / الفن، إلا إشكالية متجاوزة، خاصة وقد أصبح المقدس للفن حافزا ومؤطرا: "إذا كنا لا نستطيع نكران الحضور المستمر للمقدس في المجتمعات القديمة، فالأكثر منه هو [ الاعتراف ] بقدرته على خلق الثقافة"<sup>(26)</sup>.

وحديثنا عن علاقة الأدب بالمقدس، هو حديث عن علاقة هذا الأخير بالشعر؛ فالشعر، بدون شك، من الروافد الكبرى للأدب، وهو نمط إبداعي متأصل في صميم تلك العلاقة، بل فعال في صنعها، متميز في ذلك: أو ليس الشعر هو الكلمة التي تبعد الوجود وتصوغه؟<sup>(27)</sup> أو ليس الشعراء هم حماة الأديان؟ أو ليس الشعر هو أول رسول روحاني بعث لتهذيب البشر (... ) وعليه قامت الأديان؟<sup>(28)</sup> بلا، فالشاعر الحقيقي

(19) انظر صحيفة الإتحاد الاشتراكي الملحق ث عدد 91/5/10.339

(20) أحمد كمال زكي: التفسير الأسطوري للشعر القديم" فصول مجلد 1 السنة 1983 ص 115 .

(21) زكي محاسن، م ص 3

(22) Pierre DEPRAY. C.Psychologie..p.91.

(23) ت.س. إليوت، فائدة الشعر وفائدة النقد، تر يوسف نور عوض بيروت ط 1 1982. ص 124 .

(24) J/J/WUNENBURGER, le sacré p.47.

(25) ن م. ص 20 .

(26) ن م. ص 44

(27) ريثا عوض، اسطورة الموت ص 27-28.

يتأمل في الحياة وما في الحياة من إنسان وحيوان ونبات وجماد. ويتأمل في أغوار الإنسان، وما في الإنسان من نفس وروح وعقل وفضائل. ويتأمل في النفس، وما فيها من سعادة وألم وحرية وجمال وكمال وحب وفضيلة وإنسانيات أخرى. ويتأمل في الأكوان، وفي بديع تناسقها وجميل مناظرها، وفي ما وراء الأكوان، باحثاً عن قوة عظيمة خالقة مبدعة. كل هذا يدور في خاطر الشاعر الحقيقي الخالد، فيرفع الإنسان بلغته الموسيقية من عالم المادة إلى عالم الروح، ويحرره من أوهاق التراب ليصعد به إلى السماء (29) ولذلك غدا من الصعب التفرقة بين الشعر، كما يقول السيد يس، وبين الطقوس (30).

حقيقة أكد عليها كثير من الباحثين، بل وحاول بعضهم تفسيرها، فصدروا عن اجتهادات تحليلية مختلفة : ف P.CLAUDEL يرد ذلك إلى طبيعة البناء الشعري: " فالشعر باعتباره استعمالاً غير عاد للغة، يمكن من إدراك الشيء الصافي، لا الشيء باعتباره صالحاً لاستعمالنا اليومي، ولكن باعتباره، في معناه التام، صورة جزئية واضحة بهية للإله (...) بهذا المعنى يلتقي الشعر بالصلاة؛ لأنه يبعث جوهر الأشياء الصافي الذي هو مخلوق إلهي وشهادة على وجود هذا الأخير (31). هذا في الوقت الذي تقرن ثريا ملحس نوعية تلك العلاقة بخصوصية الأدب عموماً: " إن الأدب كما بدا لنا سابقاً بمعناه العام، هو الأدب الذي يهتم بإنسانيات الإنسان، وقد رأينا أن التأمل العميق فيما وراء المادة أو تجريد المادة، والارتفاع بها فوق ماديتها، أو معالجة القيم الروحية والإنسانية بلغة شعرية، هو ما نعنى به في بحثنا هذا (32). وما تزال هذه الحقيقة تمتاز وتتنوع عبر تصورات شتى : فهي تعزى عند إيلياحاوي لما للأثر الديني من قوة وثقل على الإبداع: " للمعتقد الديني تأثير خاص على طبائع الشاعر الفنية، لأنه وثيق الصلة بموقفه من الحياة وقيمها ومعانيها، ومن الوجود ومما وراءه. وهو يضيء على شعره لونا خاصاً به (...) بل إن إيمان الشاعر لا يُقدر إلا بقدر ما يؤثر على شعره (33). والشعراء، برأي ماركليوت، لا مجال للشك مطلقاً في أديانهم عند أغلب الأمم (34). ويربطها آخر

(28) ثريا ملحس، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت ص 42.

(29) ثريا ملحس، القيم الروحية ص 109.

(30) السيد يس، التحليل الاجتماعي في الأدب، مصر 1970 ص 79.

J.J.JOUBERT, la poesie p. 20-21.

(32) ثريا ملحس، م س، ص 109.

(33) إيلياحاوي، أمرؤ القيس، شاعر المرأة والطبيعة، دار الثقافة. بيروت. ط 1. ص 64.



بالموهبة الإبداعية (35) التي يمتاز بها الفنان، ليخلص للقول بتوحد هويتهما : " فكلهما من الأشكال الرمزية التي واجه بها الإنسان القديم الواقع، ومن الظواهر الروحية التي نتجت عن تفاعله مع الكون المحيط به (36) وهذا ما يجسّمه استنتاج Lemaitre JULES : فبعدما استقرأ عالمي المقدس والشعر، خلص إلى أن : "بين عالم الشعر وعالم القداسة هناك علاقة تناظر (37). ومن ثم صار الاهتمام بالدين، خصوصا في طفولة الإنسانية، اهتماما بالشعر، وغدا الاحتفال بأحدهما، احتفالا بالآخر. وصار رفض هذه العلاقة بحميميتها تلك، رفضا بل ابتعادا عن حقيقة حقيقية. وأضحت مقارنة أحدهما في غياب الآخر، اقترابا إن لم يكن دخولا في مرحلة يحضر فيها الهباء والخواء وفقدان الهوية والوجدان وسيطرة التشتت والتفتت، إن لم نقل فقدان التماسك في النظر لمجتمع المفروض فيه أنه ملتحم ومنسجم.

(34) ماركليوت، أصول الشعر العربي. تر يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة بيروت ط 2. 1981 ص 71.  
(35) عبد الفتاح محمد أحمد، المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي دار المناهل ط1 بيروت 1987 ص 76 .  
(36) ن.م ص 222-223.  
(37) Rachid MALUF, les chantres du vin et de la femme chez les Arbes-Paris 1949.p.20.